تشظّيات البدايات:
سؤال "الانحطاط" ونضوج الانبعاث الشعري

كامل فرحان صالح*

- **نبذة عن البحث: يسعى هذا البحث إلى معالجة قضية تبيان الحدود الفاصلة بين مرحلتي ما يسمّى "عصر الانحطاط" وما يسمّى عصر النهضة العربية، كذلك الحدود بين الانبعاث والنهضة والحديث، محاولاً البحث في الموضوع من خلال العودة إلى عدد من الموضوعات التاريخية والأدبية المعنيّة. ويستكمل البحث المعالجة عبر الوقوف على أبرز عوامل الانبعاث والنهضة ومدى أثر حملة القائد الفرنسي نابليون بونابرت (Napoléon Bonaparte/ 1769 – 1821م) على مصر في العام 1798، وما تبع هذه الحملة من عومل أثّرت في المشهد العربي على غير صعيد، فضلا عمّا أنتجته الحملة من ردود أفعال واتجاهات ومبادئ أدبية، ولاسيما النظرة إلى الشعر العربي.**
- **الكلمات المفاتيح: النهضة الأدبية، عصر الانحطاط، حملة نابليون، مفهوم الشعر**

* * *

- **تمهيد**

لم يستقر رأي مؤرخي الأدب العربي على مصطلح جامع لعصري "الانحطاط" و"النهضة"؛ إذ تباينت الآراء بين وصف الأول بـ: "عصر الظلام (الفترة المظلمة)"[1] وعصر الدول المتتابعة والعصر المملوكي والعثماني...؛[2] والثاني بـ: الاتباع[3]، والإحياء، والانبعاث

(أو البعث)، والنهضة، واليقظة، وحركة التنوير العربية[4]... قياسًا على عصر الأنوار أو التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر الذي انبثق عن حركة أوروبية فكرية علمية معروفة باسم حركة "النهضة الإنسانية".[5]

وإن كان البحث لن يتوسع في إشكالية صحة تسمية "الانحطاط" أو عدم دقتها، يلحظ أن هذا التباين في التسميات التي أطلقت على "عصر النهضة العربية"، سببه هو فاعلية التحولات التي شهدتها تلك المرحلة من تاريخ العرب على غير مستوى، وقد امتدت نحو مئة وخمسين سنة، تبدأ بدخول القائد الفرنسي نابليون بونابرت (Napoléon Bonaparte/ 1769 – 1821م) إلى مصر في العام 1798، بهدف قطع طريق الهند على الإنكليز، وتنتهي باحتلال "العدو الصهيوني" فلسطين، وإقامة ما يسمّى "دولة إسرائيل" في العام 1948، وهو ما أصبح يعرف لاحقًا، بمصطلح "النكبة".[6]

من هنا يبدو من المفيد القول بدايةً، إن مصطلح "عصر النهضة العربية" قد يقصد به: الحراك النشط فكريًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا الذي شهدته عدة دول عربية، ولا سيما منها: مصر، وبلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين)، وبلاد المهجر، في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

- **نهاية عصر "الانحطاط"؟**

لم يقف التباين على مستوى تأثير البواعث المستجدة في بنية الحياة العربية (بدءًا من العام 1798)، بل ثمة عامل آخر سببه ما سبق "عصر النهضة"، أي ما اصطلح على تسميته بـ"عصر الانحطاط"، أو "عصر الفترة المظلمة"،[7] فإذا ثمة شبه إجماع على أن بداية هذا العصر تبدأ بسقوط العاصمة العباسية بغداد أمام غزو هولاكو (Hulagu Khan) في العام 1258م، إلا أن التباين يبرز في تاريخ نهايته، ويمكن حصر هذا التباين في أربعة اتجاهات:

-**الأول:** الانتهاء في العام 1789، أي عندما وصل أسطول بونابرت إلى شواطئ الإسكندرية في مصر، إذ على الرغم من أن بونابرت لم يبق في مصر سوى ثلاث سنوات، فقد موّه احتلاله العسكري، بغية قبوله من المصريين، بمجموعة من الاستعدادات الحضارية الثقافية، منها استقدامه مفكرين وعلماء وصحافيين وفنانين من فرنسا، كذلك أنشأ فرقة تمثيلية بهدف التمويه عن الجيش، وتسليته، وقد سمح للمصريين بحضور جملة من النشاطات الاجتماعية الترفيهية، وإلى جانب ذلك، أصدر جريدتين هما: "بريد مصر"، و"العشرية المصرية"، فكانتا تنشران الأخبار، وبعض المقالات الفكرية والعلمية.

-**الثاني:** الانتهاء في أواخر القرن التاسع عشر، أي عندما قررت قوات الزعيم المصري أحمد عرابي (1841 – 1911)، أن تثور على الاحتلال الأجنبي، خصوصًا بعدما أجهدت الديون التي تراكمت منذ عهد الخديوي إسماعيل (1830 – 1895) الاقتصاد المصري. وعلى الرغم من فشل ثورة عرابي، إلا أنه كتب مذكراته في ثلاثة دفاتر كبيرة، استعرض فيها

جميع أحداث ثورته، وقد طبع الجزء الأول من مذكراته تحت عنوان: "مذكرات الزعيم أحمد العرابي: كشف الستار عن سرّ الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية".[8] كذلك عند عودة عرابي من المنفى (سريلانكا سيلان) بعد عشرين عامًا، كان معه الشاعر محمود سامي البارودي (1838 – 1904) الذي يعدّ من رواد القصيدة الكلاسيكية (التقليدي)، في ذاك العصر. وقد نظّم، في غربته، شعرًا، يبرز فيه معاناته من الوحدة والمرض والغربة عن وطنه، ويرثي فيه، من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه، ويتذكر أيام شبابه ولهوه وما آل إليه حاله. وبعد عودته إلى القاهرة، ترك العمل السياسي، وفتح بيته للأدباء والشعراء، يستمع إليهم، ويسمعون منه، وكان على رأسهم الشعراء: أحمد شوقي (1868 – 1932) وحافظ إبراهيم (1872 – 1932) وخليل مطران (1872 – 1949) وإسماعيل صبري (1854 – 1923)، وقد تأثروا به ونسجوا على منواله، فخطوا بالشعر خطوات واسعة، وأُطلق عليهم: "مدرسة النهضة"، أو "مدرسة الإحياء".

– **الثالث:** الانتهاء بإعلان الدستور العثماني في العام 1908، وقد لقي ترحيبًا في ولايات السلطنة، بالانتقال من مرحلة حكم مطلق إلى حكم دستوري يتيح للشعب أن يختار نوابه إلى مجلس الأمة الذين يدركون حاجاته ويتحدثون باسمه ويدافعون عن قضاياه. ولم تكن الولايات العثمانية في المشرق العربي أقل فرحة من ولايات السلطنة الأخرى جراء صدور الدستور.[9]

– **الرابع:** انتهاء عصر الانحطاط هو بانتهاء الحرب العالمية الأولى،[10] وضعف السلطنة العثمانية التي أطلق عليها لقب: "الرجل المريض"، إذ بعد أن استمر نفوذها على البلاد العربية نحو 500 عام،[11] كانت نهاية السلطنة في العام 1923.

مهما يكن من أمر هذه الاتجاهات، فإن أحداث ذاك الوقت وتحولاته، أثّرت تأثيرًا فاعلاً في الواقع العربي على غير مستوى؛ وقد تجلّى ذلك:

أولاً: في صدمة الاحتكاك الأول بالغرب مع حملة بونابرت.

ثانيًا: في بروز الشعور بالذات، وهويتها وانتمائها مع ثورة عرابي.

ثالثًا: في الحراك السياسي والبحث عن قيادات تمثّل الناس وتطلعاتها، بإعلان الدستور العثماني.

رابعًا: في انتهاء مرحلة الحكم العثماني، إذ يكاد المؤرخون يُجمعون على أنه لم تكن ثمّة حضارة عثمانية بالمعنى الدقيق للكلمة، إنما مجرّد مزيج من حضارات الأمم التي سبقتها وحضارات الأمم التي عاصرتها. فبرز فيها أثر العرب وأثر الفرس من ناحية، وأثر البيزنطيين وأثر الأوروبيين من ناحية ثانية.

أما الواقع فإن خير ما يُمكن أن يُقال في هذا الموضوع: إن الحضارة العثمانية امتدادٌ للحضارة العربية الإسلامية التي بلغت أوجّها في العصر العبّاسي، لكنه امتداد طبعه العثمانيون بطابعهم التركي، وطعّموه بكثير من المؤثرات البيزنطية أولاً، ثم بكثير من المؤثرات الأوروبية بعد ذلك.[12]

- **بدايات أدب الانبعاث والنهضة والحديث؟**

إن تباين الآراء في وضع تحديد دقيق لنهاية "عصر الانحطاط"، ألقى بثقله على تحديد دقيق لبداية ما يسمّى بـ"أدب النهضة والحديث"؛ فالأدب العربي ارتبط بالظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي عاشها العرب، شأنه في ذلك شأن الآداب العالمية، فكانت لكل مرحلة جذورها، وامتدادها الزمني الذي بدا شديد التداخل، مختلط المميزات والخصائص.[13] لذا، ألقت مسألة تحديد الفواصل الزمنية التي يُصنّف الأدب العربي على أساسها، جدلًا بين مؤرخي الأدب والنقّاد؛ إذ، كذلك، لم يستقر الرأي حتى اليوم، على وضع حدود فاصلة بين المراحل التاريخية: متى تبدأ؟ ومتى تنتهي؟

أمام صعوبة وضع حدود ثابتة وقاطعة بين كل مرحلة وأخرى، نتج ثلاثة اتجاهات، وسعى كل اتجاه إلى وضع فواصل زمنية بين مراحل الأدب في ذاك الوقت، يختلف عن الاتجاه الآخر. وقد توزعت هذه الاتجاهات بحسب الآتي: أربع مراحل – ثلاث مراحل – وثمة من قال بالمرحلتين.

- **الاتجاه الأول:** يذهب في معرض تقسيمه لهذه الفواصل إلى القول بالمراحل الآتية:

أ– الانبعاث: من بداية القرن التاسع عشر (الحملة الفرنسية على مصر)، حتى نهايته.

ب– النهضة: خليط من مرحلة الانبعاث والربع الأول من القرن العشرين.

ج– الحديث: يمتد من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى خمسينيات القرن العشرين.

د– المعاصر: يمتد من خمسينيات القرن العشرين إلى يومنا هذا.

- **الاتجاه الثاني:** يجمع الاتجاه الثاني القائل بالفواصل الثلاثة بين الحديث والمعاصر، ويوزع المراحل بحسب الآتي:

أ– الانبعاث يسبقها زمن تمهيدي (الحملة الفرنسية 1798م)

ب– النهضة

ج– الأدب العربي الحديث والمعاصر

- **الاتجاه الثالث:** يقصر الفواصل الزمنية للأدب العربي الحديث، على مرحلتين، هما:

أ– مرحلة الانبعاث بما فيها الخطوات الأولى للتعبير الأدبي.

ب– مرحلة النهضة والحديث والمعاصر، على أساس من تشابه الظروف العامة السياسية والاجتماعية والفكرية التي عاشها العالم العربي[14].

إلا أن المتابع، يلحظ وجود تداخل واضح بين مرحلة وأخرى، ما يجعل الحسم النهائي لهذه التقسيمات غير متوافر لما تشهده من ثغرات قد تبطل الانسجام في كل تقسيم. كما أن البحث عن تقسيم توافقي، قريب من الواقع ومساير لتطور الأدب العربي، سيقع بدوره، في إشكالية التمييز بين المراحل، وصعوبة الفصل البيّن بين الانبعاث والنهضة والحديث.

لذا، يبدو أن الاتجاه هو محاولة البحث في حركية الأدب العربي الحديث، عبر مساراتها المتنوعة والمختلفة، وصولاً إلى رسم خط بياني يقطع المراحل كافة، متوقفًا في الوقت نفسه،

عند أبرز الشخصيات الأدبية، التي خطّت عبر انتاجها، دروبًا واضحة المعالم لأدب يمكن وصفه بـ"المميز" و"الجديد" في مجاله.

وقد تختلف هذه الظواهر في غير مرحلةٍ، ويصعب التمييز في ما بينها؛[15] فهناك أدباء عاشوا على امتداد القرن العشرين؛ فالأديب اللبناني ميخائيل نعيمة (1889 – 1988) شهد القرن كله، وجاء أدبه ناطقًا باسم العصر والظواهر الفنية فيه، والشاعران العراقيان أحمد صافي النجفي (1898–1977) ومحمد مهدي الجواهري (1900– 1994) أعطيا إبداعهما في تضاعيف هذا القرن. والثلاثة معًا، شهدوا مراحل مهمة من الأدب العربي: النهضة والحديث والمعاصر، والشاعر العراقي بدر شاكر السياب (1926– 1964) ممن اختلط شعرهم؛ فجاء كلاسيكيًا من جهة، وحداثيًا من جهة ثانية، مع العلم أنه عاش في الربع الثاني والنصف الثالث من القرن العشرين، فانتماؤه الزمني غير انتمائه الفني.

والأدب العربي المعاصر كان كلاسيكيًا وحداثيًا في آن واحد، وقد شهد هذان النوعان ولا يزالان، صراعًا شديدًا لم تحسم فصوله حتى زمننا الراهن.

- **حملة نابليون وردود الأفعال**

دام احتلال القائد الفرنسي نابليون بونابرت لمصر، ثلاث سنوات (1798 – 1801)، وقد بدا جليًا أن الهدف من هذه الحملة كان في المقام الأول، اقتصاديًا – عسكريًا، يهدف إلى قطع خط التجارة بين إنكلترا والهند. وقد موّه بونابرت احتلاله العسكري، بغية قبوله من المصريين، بمجموعة من الاستعدادات الحضارية الثقافية، منها استقدامه المفكرين والصحافيين والفنانين من فرنسا، كذلك فرقة تمثيلية بهدف تسلية جيشه، وقد سمح للمصريين بحضور جملة من هذه النشاطات الاجتماعية الترفيهية، ما ساهم ببلورة نشوء مسرح للتمثيل، وإلى جانب ذلك، أنشأ مطبعة ومصنعًا للورق، ومدارس خاصة لأبناء الفرنسيين، ومرصدًا فلكيًا، كما أقام مكتبةً عامةً، وأصدر جريدتين هما: "بريد مصر"، و"العشرية المصرية"، فكانتا تنشران الأخبار، وبعض المقالات الفكرية والعلمية. ولعل هذا ما شكل لاحقًا، النواة لما يسمّى "عصر النهضة" في العالم العربي، أو التلاقح الفكري والثقافي بين الشرق والغرب.

قدم نابليون نفسه للمصريين عند وصول أسطوله إلى شواطئ الاسكندرية، على أنه "المحرر" من الطغيان والعبودية، وقد وجّه عند دخوله القاهرة وسيطرته عليها، نداءً إلى الشعب المصري، ليثوروا على المماليك، وذلك في بيان عُلّق، ليقرأ على الشعب، استهله بالقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه".[16]

ومما جاء فيه: "إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين... من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من الأهالي في مصر من الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء سيدبرون الأمور، وبذلك ينصلح حال الأمة كلها... طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم... والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله لانقضاء دولة المماليك".[17]

كان نابليون يـرى أنه على المرء أن يبدو صديـقًا للناس، وأن يبذل الوعـود الكثيرة ولا يفي بوعد منـها، وأن يصطنع الدجل ما دام هو السبيل الوحيد للنجاح، لذلك كانت نصيحته للجنرال جان بابتيست كليبر (Jean-Baptiste Kléber)[18] الذي قـاد حملته إلى مصر، أن يروّض الدين ولا يقاومه حتى ينام التعصب قبل اقتلاع جذوره؛ لذا لبـس نابليون "العـمامة"، واحتفل مع المسلمين بمناسباتهم الدينية، وأشاع أنه دخل الإسلام، وأن القرآن الكريم "تنبأ بالثورة الفرنسية"، وأن "تحرير" فرنسا لمصر "قدر مكتوب ولا اعتراض على الأقدار".

ولعل منطلقات نابليون كانت على خلفية شعار الثورة الفرنسية، وهي: "الحرية، الإخاء، المساواة"،[19] غير أن هذه الكلمات الثلاث أصبحت مبررًا للعملية الاستعمارية للعديد من الدول، ومنها مصر. وكانت "الأسطورة الفرنسية" تزعم أن الجيش الفرنسي جاء ليعلّم الشعب المصري مبادئ الثورة والتنوير، وليحرره من سيطرة المماليك، لذلك كان الفرنسيون يسمّون البلاد التي يستعمرونها "البلاد المحررة".[20]

- **ردود واتجاهات ومبادئ أدبية**

مهما يكن الموقف من حملة نابليون، إلا أن هذا الاحتلال، أنتج الآتي:

- أنهى عزلة العالم العربي عن الغرب.
- أحدث صدمة عميقة في الوجدان العربي.
- مدّ سلسلة من التساؤلات في العقل العربي: لماذا نحن متخلفون، وهم متقدمون؟ وكل ذلك على خلفية تلحظ أن الغرب قد استفاد من الحضارة العربية وتراثها الفكري، فطوّر كل ذلك، وأصبح متقدمًا على خلاف ما أصبح عليه العرب.
- أظهر حجم الفجوة الحضارية بين العالمين العربي والأوروبي، ومدى تخلف العرب وانحطاطهم حضاريًّا، وضعفهم آنذاك.

وقد تمثّل التأثير الحقيقي للتواجد الفرنسي في القاهرة لاحقًا، بإقدام الوالي المصري محمد علي باشا (1769 – 1849) على إجراءاته التحديثية والتجديدية في مجالات التعليم والعسكر والصناعة، وواصل ابنه إبراهيم (1789- 1848) مشروع والده التحديثي، ولا سيما في بيروت وبلاد الشام عمومًا.

على مستوى آخر، أدى احتلال نابليون لمصر، أيضًا، إلى بروز **ثلاثة اتجاهات عربية**، بسبب عنف الصدمة:

- **أولاً: اتجاه اتباعي/ تحديثي:** نادى باتباع الغرب لأجل خلاص العالم العربي من التخلف، عبر التمغرب في أوجه الحياة العربية كافة.
- **ثانيًا: اتجاه سلفي:** دعا إلى ضرورة العودة إلى سيرة "السلف الصالح"، أي إلى "الماضي العربي المشرق"، عندما كان العرب وقتئذٍ أسياد العالم، وذلك عبر التمسك بثوابت الماضي والأمة.

– **ثالثًا: اتجاه توفيقي:** دعا إلى تبْيئَة النظم والأفكار الغربية، أي جعل هذه النظم والأفكار الغربية عربية، وسعى إلى تأصيلها. وكان السؤال المركزي لهذا الاتجاه، هو: كيف نلحق بالغرب من دون أن نفقد هويتنا؟

في المقابل، وعلى المستوى النقدي، ولّد اللقاء العربي الأدبي مع الغرب في بدايات النهضة، أربعة مبادئ،[21] يمكن إيجازها بدايةً، بالرسم الآتي:

المضمون:	طريقة التعبير:	تعريف الشعر:
التخلي عن الموضوعات الشعرية القديمة	لا يمكن التعبير عن مضمون جديد بشكل قديم	يجب أن يعرّف بمعناه لا بلفظه

كل هذه العناصر أدت إلى **تغيير النظرة إلى الشاعر:**
إذ هو لم يعد يكتب القصائد من دون رؤيا للعالم أو اتخاذ موقف منه.

وفي تفصيل هذه المبادئ:

– **المبدأ الأول: يتصل بالموضوع أو المضمون،** وخلاصته بحسب الشاعر السوري اللبناني علي أحمد سعيد إسبر المعروف بـ"أدونيس" (1930)، أن الحياة الجديدة التي يحياها الشاعر العربي، أنتجت مشكلات جديدة، لهذا عليه أن يعي هذه المشكلات، ويشتقّ موضوعاته منها، ويترك من ثم، الموضوعات التقليدية الموروثة؛[22] فالطبيب والمفكر اللبناني **شبلي الشميل** (1850 – 1917) مثلاً، كان قد دعا الشعراء العرب في بدايات القرن العشرين، إلى التخلّي عن الموضوعات القديمة؛ المدحية الاستجدائية وغيرها، والالتزام بالمبادئ الاجتماعية والفلسفية المادية.[23] ويدعوهم الأديب اللبناني **جرجي زيدان** (1861–1914) في غير مقالة له نشرها في مجلته "الهلال"، إلى الارتباط بعصرهم،[24] كذلك يدعوهم الأديب اللبناني **أمين الريحاني** (1876 – 1940) إلى أن يُعنوا بما يسمّيه "الحقائق الكونية والبشرية"، وينبذوا الموضوعات التقليدية، ذلك أن الشعر العربي لم يعد "في مجمله غير أصداء لأصوات الشعراء الماضية وأشباح لألوانه وأشكاله".[25]

– **المبدأ الثاني: يتصل بطريقة التعبير**؛ فإذا كانت المشكلة قد تغيّرت، فعلى الشاعر أن يغيّر طريقة تعبيره، فلا يمكن التعبير عن "مضمون" جديد "بشكل" قديم؛ فتغير "المضمون"، يستدعي تغير "الشكل". وقد اقتصرت الدعوة إلى تغيير الشكل على مجرد التحرر من أشكال النُظم التقليدية. وتضمّن ذلك امكان الكتابة الشعرية بطريقة جديدة غير طريقة الوزن أو التزام القافية؛ وهي بحسب **الريحاني** طريقة "الشعر الحر الطلق"، وعند **زيدان** "الشعر العصري"،[26] وعند الكاتب اللبناني **توفيق إلياس إنجليل** "الشعر المنثور" أو "الشعر النثري".[27] ومميزات هذه الطريقة: تحرر الشعراء العرب من القيود القديمة التي كانت تناسب العصر الذي وضعت فيه، ولم تعد كذلك في عصرهم، فـ"الوزن يعيق الشاعر عن بسط أفكاره كلّها، ويؤخره عن الوصول لغايته، ويربطه بهيئة التعبير فلا يعود يمكنه اطلاق الفكر الذي يتطلبه الجمال

والشعر"،[28] ومن مميزات هذه الطريقة أيضًا، الطواعية في اشتمالها على الخيال والفلسفة، والغرابة والجدة. وهذه الطريقة تلتمس مقياسها ومصدرها في الشعر الأوروبي (الافرنجي بحسب تعبير زيدان).

– **المبدأ الثالث: يتصل بتعريف الشعر**، فتعريفه في الماضي كان تابعًا لأغراضه وأشكاله، وبما أن هذه الأغراض والأشكال قد تغيّرت، فإن تعريفه يجب أن يتغير. وهكذا يدعو زيدان إلى وضع تعريف جديد للشعر العربي يرتبط بالعصر، وذلك في مقالتين له تحت عنوان: "الشعر العصري"،[29] إذ يقول: "المراد بالشعر العصري الشعر الذي يوافق روح هذا العصر بلفظه وأسلوبه ومعناها"، ومن خصائصه: "أن تكون التصورات بسيطة والمعاني واضحة بلا تكلف ولا غلوّ، وأن تكون خالية من الحشو أو التعقيد غير مقيدة بالأساليب القديمة، وأن تكون العمدة في النظم على المعاني الشعرية لا على التراكيب اللفظية".[30]

ويلحظ زيدان في مقال آخر له تحت عنوان: "الشعر المنثور في اللغة العربية"،[31] أن العرب قديمًا "كأنهم عرّفوا الشعر بلفظه لا بمعناه وأما الافرنج فيعرفونه بمعناه دون لفظه فهو عندهم منظوم ومنثور والمنظوم قد يكون موزونًا غير مقفى أو مقفى غير موزون"، موضحًا أن "العمدة عندهم على الخيال الشعري أو المعاني الشعرية". واذا قبلنا ذلك، يصبح الشعر العربي، كالشعر الأوروبي (الافرنجي)، أساسه الخيال أو المعنى، ويبني زيدان على هذا المسار، ما قدمه "أخوات اللغة العربية"، مشيرًا إلى الشعراء السريان الذين كتبوا بلغتهم الشعر موزونًا من دون قافية، و"العبران لم يكونوا يشترطون القافية ولا الوزن".[32]

أما توفيق إلياس فيبدي في مقالته "الشعر المنثور"، تعجبه من "مستشعري" عصره الذين "زعموا أن حسنه [أي الشعر] ناشئ عن الوزن، وأن الوزن ضروري له. ثم سنّوا للأوزان شرائع دعوها أبحرًا وقالوا إن الشعر لا يخرج عن تلك الأوزان وما خرج لا يحسب شعرًا بل نثرًا"! ثم ينتقد من "همّهم الكلام وتنسيقه والعبارات وتزيينها بقطع النظر عن المعاني"،[33] مضيفًا "أصبح الشعر بين أولئك المستشعرين "كلامًا موزنًا" خاليًا مما يمكننا أن ندعوه شعرًا".[34] ويتوسع في رأيه ليؤكد النقاط الآتية:[35]

– القافية والوزن أثران من آثار اختلاط الشعر بالغناء والموسيقى؛ فـ"الشعر والموسيقى كانا عند الشاعر الأول شيئًا واحدًا".

– "ترقي الإنسان" اقتضى فصل الشعر والموسيقى، إلى "فنين مختلفين"، بحسب "الشريعة العامة شريعة ارتقاء الأنواع بواسطة التفرع والاختصاص". وهكذا نشأ "الشعر النثري" الذي ليس "ابن اليوم بل هو يرجع قرنًا أو قرنين قبل الآن"، وهو "تتمة ذلك الفصل بين الموسيقى والكلام".

– الشعر، إذن، "أمر وراء الكلام"، ولهذا تَمكُن كتابة الشعر بالكلام مطلقًا.

– **المبدأ الرابع: ينبثق عن المبادئ الثلاثة الأولى**، وخلاصته أنه علينا أن نغيّر النظرة إلى الشاعر، فلم يعد الشاعر من يكتب القصيدة تلو الأخرى دون رؤيا للعالم أو موقف منه،

بحيث يجيء شعره مجموعة من الانفعالات، أو وصفًا للأحداث من دون رابط رؤيوي أو جمالي يربط في ما بينها، ويوحدها، بل الشاعر هو الذي يصدر عن رؤيا أو من له رسالة كما يعبّر **جبران خليل جبران** (1883– 1931) فمن "لا رسالة له، ليس شاعرًا". وقد تجلّى هذا المفهوم، على نحو خاص، عند جبران، بحسب أدونيس.[36]

- **محصلة واستنتاج**

أظهر البحث بدايةً، صعوبة التمييز بين المراحل والفواصل الزمنية، ولا سيما من ناحية عدم وجود تحديد دقيق لعصر ما يسمّى الانحطاط ما أدى بدوره، إلى عدم تحديد دقيق لبداية ما يسمّى بعصر النهضة. وقد أظهر البحث الطرائق التي تصل كل مرحلة أو ظاهرة فنية مع سابقتها، ما يدع المجال للقول: إن الأدب في العصر الحديث (أي الإنبعاث والنهضة والحديث) كلٌّ مترابط، ومن الصعوبة بمكان القول بالفصل بين مراحلها؛ فمثلاً، تجديد الأديبين اللبنانيين خليل مطران وجبران خليل جبران في ما قبل الحرب العالمية الأولى، استمر عند مدرستي "الديوان" و"أبولو" في مصر.

وهكذا فإن معالم الأدب العربي الحديث (بما يتضمنه من انبعاث ونهضة)، تبدو في وحدة من الصعبِ تجزئتها، إلا ما كان من أمر الحداثة ودخول بعض التيارات الفكرية والاتجاهات الفنية والأساليب اللغوية الحديثة (مثل: الألسنية، والبنيوية، والأسلوبية الشعرية،...).[37]

في المقابل، بدا ثمة اتجاه تقدم على غيره من الاتجاهات بما يتعلق بتحديد عصر النهضة العربية، إذ على الرغم من عدم توافق الآراء في تحديد بداياته أو نهاياته، سيطر الرأي القائل إن مصطلح "عصر النهضة العربية" شمل الحقبة الممتدة من دخول حملة نابليون الفرنسية إلى مصر في العام 1798م، إلى الحرب العالمية الأولى التي انتهت بسقوط معظم البلدان العربية تحت الاستعمار الغربي المباشر، وصولاً إلى "نكبة فلسطين".

ولعل أبرز عوامل الانبعاث والنهضة يمكن إيجازها بالنقاط الآتية:

– حملة نابليون الذي غلّف رغبته بالسيطرة على العالم العربي بمكوّنات حضارية وثقافية وفكرية، كان لها أن تتبلور لاحقًا ضمن الفاعليات الحضارية التي بدأت تبرز عربيًّا، ومنها نشاط لافت للانتباه للصحف، والمطابع، والمسارح، والمدارس الحديثة، ومصانع الورق، والمراصد الفلكية، والمكتبات العامة، والعلوم الإنسانية والاجتماعية... إلخ.

– بروز لافت للانتباه للحركات الداعية إلى الإصلاح الديني والسياسي.

– يقظة الأمة العربية، إذ تحول الشعور بالتململ الذي ساد المجتمعات العربية في أواخر عهد دولة الخلافة العثمانية، إلى حالات من الرفض، كان لها أن تتسع كبقعة الزيت في مفاصل الأمة العربية، ضد الدولة العثمانية وهيمنتها، وما سببته من تخلف وتراجع على غير صعيد حضاري في بنية المجتمع العربي.

أما على المستوى الأدبي، فقد ظهرت عوامل عديدة بعد حملة نابليون إلى مصر، على الرغم من عمرها القصير (إذا صحّ التعبير)، ومن هذه العوامل:

– العمل على استعادة ماضي العرب الحضاري، وقد تجلّى ذلك على غير مستوى، ولا سيما بإعادة نشر كتب التراث بدايةً، ثم تحقيقها وتقديم قراءات نقدية فيها.

– بروز تيارات تجديدة في المجالات الابداعية، تمثلت بدايةً بمدرسة الانبعاث الأولى، وقد سلكت مسلك المذهب الكلاسيكي،[38] ثم تبلور في موازاة هذا الاتجاه، اتجاه آخر، بفعل تأثير الأدب المهجري العربي، فدعا إلى استقلالية الشاعر وحريته في ممارسته الشعرية، أي تحرير النصّ من نمط التقليد. وقد سلك هذا الاتجاه بدايةً، مسلك المذهب الرومانسي، ثم الرمزي، ثم بقية المذاهب الأدبية.

– الدعوة إلى استقلالية الشاعر وحريته في ممارسته الشعريــة، أي تحريــر النصّ الشعري من نمط التقليد. فمنذ بدايات القرن التاسع عشر، ظهرت نتيجة نشاط الإرساليات التبشيريّة، وتعريب الأدب الغربي، تيارات أدبية أهملت تدريجيًّا، ما غلب على القصيدة التقليدية من سمات وخصائص، محاولةً تبني أسلوب شعري بسيط، وجديد، وأشكال كتابية أكثر تحررًا، وموضوعات جديدة. ففي لبنان مثلاً، انصب اهتـمام أصحاب المدارس التجديدية، على آداب الغرب بدءًا من أواخر القرن التاسع عشر، وبخـاصة المدرستين الرومانسية والرمزية.

– انتقاد الاتجاه الكلاسيكي التقليدي، ومن ذلك:[39] أن القصيدة الكلاسيكية تعالج المظهر السطحي من مظاهر الحياة، وهي في خدمة الطبقة الحاكمة، وتكبّل الأسلوب، وتهتم بالشكل من دون الموضوع، وأنها تعتمد على الفكرة لا على الصورة الشعريّة الحيّة الموحية، كذلك تعتمد على المعجم اللغوي لا التجربة الشعريّة، والتعبير العفوي. وفوق ذلك، تفتقر إلى الرؤيا الإنسانية الشمولية.

كل هذه العوامل وغيرها، كانت تمهد لولادة قصيدة عربية جديدة، تخلع عنها ثوبها القديم تدريجيًّا، لترتدي ثوبها الخاص الحديث والمعاصر.

* * *

الهوامش

* **باحث وشاعر وأكاديمي لبناني – أستاذ في الجامعة اللبنانية**

1– ينظر: أدونيس: **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والاتباع عند العرب**، ج. 4، دار الساقي، بيروت 1994، ط.7، ص 46. والمصطلح الذي يستخدمه أدونيس "الفترة المظلمة".

2– يقصد بالدول المتتابعة: الزنكيّة، والأيوبيّة، والمملوكيّة، والعثمانية.

3– يلحظ أن التفسير المعجمي للفظة: "**اتباع**"، هو إلحاق شيء بشيء آخر. ينظر: الفاخوري، حنا (وآخرون): **المعجم الوافي**، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت 1986، ط.2، ص 11.

4– قياسًا على عصر الأنوار أو التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر الذي انبثق عن حركة أوروبية فكرية علمية معروفة باسم حركة "النهضة الإنسانية".

5– Roberson, Rusty (2016). "**Enlightened Piety during the Age of Benevolence: The Christian Knowledge Movement in the British Atlantic World**". Church History, 85 (2): 246. doi:10.1017/S0009640716000391

6– ثمة رأي يحصر بداية النهضة العربية بين دخول إبراهيم باشا إلى سوريا في العام 1832، والانتهاء باندلاع الحرب العالمية الأولى (1914)

7– ينظر: أدونيس: **الثابت والمتحول**، ج.4، ص 46.

8- حقّق المذكرات ودرسها أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي، وطبعت في ثلاثة مجلدات بدار الكتب والوثائق القومية (مركز تاريخ مصر) في العام 2005م.

9- لم يدم الابتهاج بالعهد الدستوري الجديد، إذ جرى تقييد الصحافة من جديد، بصدور قانون الصحافة في آب 1909. ينظر: لبكي، جوزيف: **متصرفية جبل لبنان. مسائل وقضايا 1861-1915.** دار الكرمة 1995، ص 128. وينظر: سنّو، د. عبد الرؤوف: **صدى الدستور العثماني في صحافة بيروت عام 1908 الأمة والدولة والتاريخ والمصائر.** (دراسات مهداة إلى الأستاذ رضوان السيّد بمناسبة بلوغه الستين)، الشبكة العربية للأبحاث، 2011، ص 343 وما بعدها.

10- **الحرب العالمية الأولى:** نشبت بين القوى الأوروبية من العام 1914 إلى 1918. بدأت حينما أعلنت الإمبراطورية النمساوية المجرية الحرب على مملكة صربيا في تموز 1914 على إثر أزمة دبلوماسية نشبت بين البلدين بسبب اغتيال ولي عهد النمسا الأرشيدوق فرانز فرديناند مع وزوجته من قبل طالب صربي يدعى غافريلو برينسيب أثناء زيارتهما لسراييفو. وقدرت خسائر الحرب العالمية الأولى بـ 8,538,315 قتيلا، و21 مليون جريح، و7 ملايين أسير ومفقود.

11- بدءًا من انتصارهم على المماليك في معركة مرج دابق في العام 1516.

12- جحا، شفيق، ومنير البعلبكي، وبهيج عثمان: **المصوّر في التاريخ**، ج. 6، دار العلم للملايين، بيروت، ص 150

13- ينظر: المعوش، د. سالم: **الأدب العربي الحديث**، دار المواسم، بيروت 1999، ص 5

14- م. ن.، ص 6

15- المعوش: **الأدب العربي الحديث**، ص 6 وما بعدها

16- **الجبرتي**، عبد الرحمن: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، 3ج، دار الكتب المصرية، طبعة 1998

17- **نصّ البيان الذي أصدره نابليون للمصريين:** "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه. من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، يظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي؛ فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأزابكة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم.

يا أيها المصريون قد قيل لكم: إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم. وقولوا أيضًا لهم: إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب. فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة؟! فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم.. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها. وسابقًا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم: إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون؛ وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي الباب الذي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه. ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلًا إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم. طوبى أيضًا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب.

لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكرًا من عندها وكلاء...

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضًا تنصب صناجق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم. وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئنًا.

وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة. والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت [عالي] أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية".

تحريرًا بمعسكر إسكندرية في 13 شهر سيدور سنة 1213، من إقامة الجمهور الفرنساوي، يعني في آخر شهر محرم سنة هجرية (أه) بحروفه

18- قُتل الجنرال كليبر طعنًا على يد سليمان الحلبي في العام 1800، ثم دفن في فرنسا العام 1801. سحق كليبر ثورة القاهرة الثانية ضد المصريين، وقد كانت بولاق مركزا لها، فنصب مدافعه على قمة جبل المقطم وشرع بقصف الحي حتى جعله أثرًا بعد عين، وهكذا تمكن من القضاء على الثورة. واستمر كليبر في استفزاز مشاعر المصريين مما دفع سليمان الحلبي (طالب سوري أزهري) إلى اغتياله في حديقة قصره بطعنة خنجر في قلبه، ودُفن في حديقة قصره بالقاهرة، ثم حُملت جثته عند خروج الجيش الفرنسي من مصر ليُدفن في فرنسا كما ذكر في وصيته.

19- liberté, égalité, fraternité

20- يقول "ماري جوزيف مورايي" أحد الضباط المشاركين في حملة نابليون على مصر في مذكراته: "كان أملنا أن نعيد إليهم الحضارة، وحكم العلوم والآداب... أن نعيد إليهم النماء والخصوبة والسعادة".

21- ينظر، أدونيس: **الثابت والمتحول، ج. 3: صدمة الحداثة**، دار العودة، بيروت 1983، ط.4، ص ص 40 و41

22- م. ن.

23- ينظر، **مجموعة شبلي الشميل**، ج.2، مطبعة المعارف، القاهرة 1910، ص 254 و255

24- ينظر، زيدان، جرجي: **"الشعر العصري"**، مجلة الهلال، آذار/ مارس 1905، ع. 6، ص. 331 وما بعدها، وحزيران/ يونيو ع. 9، ص 498 وما بعدها.

25- ينظر، الريحاني، أمين: **أنتم الشعراء (الوصية 5)**، مطبعة الكشاف، بيروت 1933، ط2 دار الريحاني، بيروت

26- زيدان: **"الشعر العصري"**، مجلة الهلال، م. س.

27- ينظر مقالته: **الشعر المنثور**، مجلة الهلال، كانون الأول/ ديسمبر سنة 1906، ع.3، ص 160.

28- م. ن.، ص 162.

29- زيدان: **"الشعر العصري"**، م. س.

30- مجلة الهلال، ع. 9، ص 501.

31- زيدان، جرجي: **"الشعر المنثور في اللغة العربية"**، مجلة الهلال، تشرين الثاني/ نوفمبر 1905، ع. 2، ص. 97 وما بعدها.

32- ينظر، زيدان، جرجي: **الشعر الموزون غير المقفى**، مجلة الهلال، كانون الثاني/يناير 1906، ع. 4، ص 216

33- ينظر، مجلة الهلال، **الشعر المنثور**، كانون الأول/ ديسمبر سنة 1906، ع.3، ص 161.

34- م. ن.، ص 162.

35- م. ن.، ص 160 وما بعدها.

36- ينظر: **صدمة الحداثة**، م. س.، ص 41

37- المعوش: **الأدب العربي الحديث**، ص 9 و10.

38- يلحظ أن الكلاسيكية عند الغرب تتمثل في الكتابات الإغريقية القديمة (اليونان)، في حين أن الكلاسيكية عند العرب كانت تتبع مسالك الإبداع العربي القديم الممتد من عصر ما قبل الإسلام إلى القرن العاشر الميلادي.

39- للتوسع، ينظر: صالح، د. كامل فرحان: **حركية الأدب وفاعليته (في الأنواع والمذاهب الأدبية)**، دار الحداثة، بيروت 2018، ط.2، ص: 139، (المآخذ على الكلاسيكية).

***

مكتبة البحث

- **العربية:**
- أدونيس: **الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والاتباع عند العرب**، ج. 4، دار الساقي، بيروت 1994، ط.7
- أدونيس: **الثابت والمتحول، ج. 3: صدمة الحداثة**، دار العودة، بيروت 1983، ط.4
- **إنجليل، توفيق إلياس: الشعر المنثور**، مجلة الهلال، كانون الأول/ ديسمبر سنة 1906، ع.3
- الجبرتي، عبد الرحمن: **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، 3ج، دار الكتب المصرية، طبعة 1998
- **جحا، شفيق، ومنير البعلبكي، وبهيج عثمان: المصوّر في التاريخ**، ج. 6، دار العلم للملايين، بيروت 1950
- الريحاني، أمين: **أنتم الشعراء (الوصية 5)**، مطبعة الكشاف، بيروت 1933، ط2 دار الريحاني، بيروت
- زيدان، جرجي: **الشعر العصري**، مجلة الهلال، آذار/ مارس 1905، ع. 6، ص. 331 وما بعدها، وحزيران/ يونيو ع. 9
- زيدان، جرجي: **الشعر المنثور في اللغة العربية**، مجلة الهلال، تشرين الثاني/ نوفمبر 1905، ع. 2
- زيدان، جرجي: **الشعر الموزون غير المقفى**، مجلة الهلال، كانون الثاني/يناير 1906، ع. 4
- سنّو، عبد الرؤوف: **صدى الدستور العثماني في صحافة بيروت عام 1908 الأمة والدولة والتاريخ والمصائر**، الشبكة العربية للأبحاث، 2011
- صالح، كامل فرحان: **حركية الأدب وفاعليته (في الأنواع والمذاهب الأدبية)**، دار الحداثة، بيروت 2018، ط.2
- **العرابي، أحمد: مذكرات الزعيم أحمد العرابي: كشف الستار عن سرّ الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية**، حقّق المذكرات ودرسها د. عبد المنعم إبراهيم الجميعي، 3. مج، دار الكتب والوثائق القومية (مركز تاريخ مصر) 2005
- الفاخوري، حنا (وآخرون): **المعجم الوافي**، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت 1986، ط.2
- لبكي، جوزيف: **متصرفية جبل لبنان. مسائل وقضايا 1861-1915**. دار الكرمة 1995
- **مجموعة شبلي الشميل**، ج.2، مطبعة المعارف، القاهرة 1910
- المعوش، سالم: **الأدب العربي الحديث**، دار المواسم، بيروت 1999
- **الأجنبية:**

- Roberson, Rusty (2016). "**Enlightened Piety during the Age of Benevolence: The Christian Knowledge Movement in the British Atlantic World**". Church History, 85 (2): 246. doi:10.1017/S0009640716000391

***